الضاد وأحكامها في لغتنا العربية

مقدمـــــة:

اتفقت كلمة علماء الأصوات على "أن وصف علماء العربية وعلماء التجويد الأوائل لصوت الضاد لا ينطبق اليوم على نطق مجيدي قراءة القرآن لهذا الصوت، وأن هذا الأمر قد أدى بهم إلى القول أن تغيراً قد حصل في نطق الضاد، وهو تغير يشمل مخرج الصوت وبعض صفاته، ولكن هذا التغير لم يحظ باعتراف كثير من القائمين على أمر تعليم تلاوة القرآن في زماننا والمؤلفين لكتب علم التجويد"[1]. ومرجع ذلك إلى أمرين:

أولهما: أن نطق العربية الفصحى أصَابه التطور فاختلف نطق بعض الأصوات في زماننا على مستوى النطق الفصيح عنه في زمان أولئك القدماء، الذين وصفوا ما سمعوا، وأصابوا في هذا الوصف.

والثاني: أن نطقنا للفصحى متفق مع نطق العرب القدماء لم يتطور ولم يقع له تغيير، غير أن علماءنا القدماء وَهِمُوا في وصفهم لهذا النطق.

ويميل الدكتور رمضان عبد التواب إلى الميل في الأعم الأغلب إلى تصديق التراثيين في أوصافهم، ويؤمن بالتطور اللغوي الذي أصاب بعض أصوات الفصحى، ولا يلجأ الدكتور رمضان إلى تخطئة القدماء في وصفهم إلا في حالة عدم وجود حيلة تقول بتطور هذا الصوت أو غيره، وحصر الدكتور رمضان الخلاف بين التراثيين والمحدثين في وصف خمسة أصوات، وهي: الضاد والطاء والجيم والقاف والعين ثم بدأ يفصل القول في ذلك.[2]

وهذا ما أدّى إلى التناقض بين النظرية والتطبيق، ففي كتب تعليم قواعد التلاوة يوصف صوت الضاد بأنه صوت رخو، وأن مخرجه من حافة اللسان، نجده في نطق قرّائنا المعاصرين صوتاً شديداً ومخرجَه من اللثة، ويُعامَل على أنه صوت متفرّد يتصف بالاستطالة، ويستعصى على الإدغام بغيره من الأصوات عند التراثيين، وفي نطق المعاصرين يكاد يُعامَل معاملة صوت الطاء أو يجب أن يكون

---

(1) أبحاث في علم التجويد، ص146.

(2) ينظر: المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، رمضان عبد التواب، ص62.

كذلك من هذه الناحية، ويمكن تناول قضية الضاد بين التراثيين والمحدثين في العناصر الآتية:

- العنصر الأول – أحكام الضاد عند التراثيين.
- العنصر الثاني – أحكام الضاد عند المحدثين.
- العنصر الثالث – الضاد الضعيفة.
- العنصر الرابع – الفرق بين الضاد والظاء.
- العنصر الخامس – لغة الضاد.

العنصر الأول: أحكام الضاد عند التراثيين

تختلف الضاد القديمة عند الضاد المنطوق بها الآن في أمرين جوهريين هما:

أولهما: أن الضاد القديمة ليس مخرجُها الأسنان واللثةَ، بل حافة اللسان أو جانبُه.

وثانيهما: أنها ليست انفجارية (شديدة) وإنما هي صوت احتكاكي (رخو).[1]

فقد عدّها الخليل بن أحمد في حيز الجيم والشين، وهما من الأصوات الغارية، فقال وهو يذكر أحياز الحروف: "ثم الجيم والشين والضاد في حيز واحد".[2] ويوضح سيبويه مخرج الضاد فيقول: "ومنَ بين أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس مخرج الضاد".[3]

وقال سيبويه في أثناء حديثه عن مخرج اللام "ومن حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان".[4]

وذكر سيبويه صفات للضاد منها: الجهر، والرخاوة والإطباق، والاستعلاء، والاستطالة.[5]

والضاد اختصّت بمخرجها وبصفة الاستطالة، وهذا ما منعها من الإدغام في غيرها، قال ابن يعيش: "الضاد تدغم في مثلها فقط، كقولك: ادْحَضْ ضَّرَمَة، ولا

---

(1) ينظر أبحاث في علم التجويد، ص146.

(2) كتاب العين 58/1.

(3) كتاب سيبويه، 405/2.

(4) المصدر نفسه، 433/4.

(5) ينظر: أبحاث في علم التجويد، ص148.

تُدغم في غيرها لِمَا فيها من الاستطالة التي يُذْهِبُها الإدغام".[1]

ويستخلص من كلام سيبويه في باب الإدغام أن الحروف التي تُدْغَم في الضاد سبعة، هي: اللام، والطاء، والدال، والتاء، والظاء، والذال، والثاء".[2]

ويدل على وجود الإدغام ما نقله ابن يعيش أنه "قد رُوي عن أبي عمرو بن العلاء إدغام الضاد في الشين في قوله (لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ) النور: 62. قال ابن مجاهد لم يَرْوِ عنه هذا إلا أبو شعيب السوسي، وهو خلاف قول سيبويه"[3]

ويوضح المبرد نطق الضاد فيقول: "الضاد ومخرجها من الشدق فبعض الناس تجري له في الأيمن، وبعضهم تجري له في الأيسر"[4]

ويقول ابن جنى (ت392هـ) "ومن أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس مخرج الضاد، ألا أنك إن شئت تكلفتها من الجانب الأيمن، وإن شئت من الجانب الأيسر".[5]

وذكر غانم قدُّوري الحمد خلاصةً لِمَا ذكره سيبويه في عدة نقاط هي:

1- الضاد تميزت بمخرجها، فهي من حافة اللسان من أقصاها، مع ما يقابلها من الأضراس، وكان سيبويه قد ذكر (الضاد) قبل الجيم حين رتب الحروف (... ك ض ج ش ي ...)[6] لكنه جعل مخرج الضاد بعد مخرج حروف وسط اللسان (ج ش ي) باتجاه طرف اللسان.[7]

وكان الخليل بن أحمد قد قال "الجيم والشين والضاد في حيز واحد". وسمّاها شجْرية؛ لأن مبدأها من شجْر الغم، وهو مَفْرِجُهُ".[8]

---

(1) شرح المفصل، 140/10.

(2) الكتاب، 457/4.

(3) شرح المفصل، 140/10، وينظر النشر لابن الجزري 293/1.

(4) المقتضب للمبرد، 193/1.

(5) سر صناعة الإعراب، 52/1.

(6) الكتاب، 431/4.

(7) المصدر نفسه، 433/4.

(8) العين، 58/1، وينظر أبحاث في علم التجويد، ص152.

2- والضاد التي وصفها سيبويه صوت رخو[1] لا ينحبس النفس في مخرجه مجهور، يتذبذب الوتران عند النطق به، مطبق، مستعلٍ تميّز بالاستطالة والنطق الأسناني والتفخيم.[2]

3- صوت الضاد فيه زيادة الصوت، وبناءً على ذلك لا يُدْعَمُ فيه ما هو أنقص منه صوتاً، وفي الضاد استطالة ليست في غيره من الحروف، فلم يدغموها في شيء من الحروف المقاربة لها، إلا ما ورد من إدغامها في الشين، في قوله تعالى (لِبَعْضِ شَّأْنِهِمْ)[3] وسوّغ ذلك ما في الشين من تفشٍّ يُشبه الاستطالة يقرّبها من الضاد[4]، ولهذا أُدغمت اللام والتاء والدال والطاء والثاء والذال والظاء في الضاد، ولم تُدْغَمْ هي فيها[5]، "ولما كانت الضاد القديمة الموصوفة بالاستطالة غير متحققة في النطق اليوم، وهي الأصل في هذه الصفة فإن تصور تلك الصفة في الضاد لا يصل إلى الوضوح التام، ويمكن أن نستنتج أن المقصود بالاستطالة هو اتساع مخرج الحرف، أي أن ما يأخذه الحرف المستطيل من العضوين اللذين يشتركان في مخرجه أكبر مما يأخذه الحرف غير المستطيل من ذينك العضوين".[6]

4- صوت الضاد صوت متفرد لوجود صفات خاصة به، ولهذا قال سيبويه: لولا الإطباق لصارت الضاد دالاً والصاد سيناً والظاء ذالاً ولخرجت الضاد من الكلام لأنه ليس شيء من موضعها غيرها.[7]

وبعد سيبويه كتب كثير من اللغويين عن الأصوات اللغوية ولكنهم اعتمدوا

---

(1) يقول الدكتور محمد مصطفى رضوان عن صفة الضاد: "والضاد عند العرب القدامى ليست شديدة أي ليست انفجارية، وإنما هي رخوة، أي احتكاكية بالتعبير الحديث، ولهذا لم يذكروها ضمن أصوات (أجدت طبقك) التي هي الأصوات الشديدة في رأيهم" نظرات في اللغة، ص201.

(2) ينظر: مناهج البحث في اللغة، ص120.

(3) سورة النور، الآية: 62.

(4) ينظر: شرح المفصل، 140/10، وأبحاث في علم التجويد، ص152، والدراسات الصوتية عند علماء العربية، عبد الحميد الأصبيعي، ص86.

(5) ينظر: أبحاث في علم التجويد، ص152.

(6) الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، الحمد، ص321.

(7) الكتاب، 436/4.

على سيبويه كثيراً في ذلك، وصار أساساً لهم في تناولهم للأصوات وظواهرها الخاصة بالنطق العربي ووصفها وتعليلها، ولهذا ظل ما ذكره سيبويه يتكرر في كتب اللغة والتجويد، فالمخرج من أول حافة اللسان. والصفات: الجهر، والرخاوة، والإطباق، والاستطالة.[1]

ومع ذلك كان هناك جديد، وهو التركيز على تغير نطق صوت الضاد، والتحذير والتنبيه على أنه يخالف صوت التراثيين، والتحذير من نطقه على صورة تخالف ما كان عليه في القرون الأولى.[2]

قال مكي بن أبي طالب القيسي (ت437هـ): "ولابد للقارئ من التحفظ بلفظ الضاد حيث وقعت، فهو أمر يقصّر فيه أكثر من رأيتُ من القراء والأئمة، ومتى فرّط في ذلك أتى بلفظ الظاء أو بلفظ الذال فيكون مُبدّلاً ومغيّراً، والضاد أصعب الحروف تكلفاً في المخرج، وأشدها صعوبة على اللافظ فمتى لم يتكلف القارئ إخراجَها على حقها أتى بغير لفظها وأخلّ بقراءته".[3]

وقال الداني (ت444هـ) عن نطق الضاد "ومِن آكدِ ما على القراء أن يخلّصوه من حرف الظاء بإخراجه من موضعه، وإيفائه حقّهُ من الاستطالة".[4]

وقال عبد الوهاب القرطبي (ت461هـ) "وأكثر القراء اليوم على إخراج الضاد من مخرج الظاء، ويجب أن تكون العناية بتحقيقها تامة، لأن إخراجها ظاءً تبديل".[5]

وقال ابن وثيق الأندلسي(ت654هـ)عن الضاد: "وقَلّ مَن يُحْكِمُها من الناس".[6]

وحدّد ابن الجزري (ت833هـ) التغيرات التي طرأت على الضاد في عصره، فقال: "والضاد انفرد بالاستطالة، وليس في الحروف ما يَعْسُرُ على اللسان مِثْلُه، فإنّ ألسنة الناس فيه مختلفة وقَلّ مَن يُحْسِنُهُ، فمنهم من يخرجه ظاءً، ومنهم من يمزجه

---

(1) الاستطالة: هي امتداد الصوت في مخرجه من أول حافة اللسان إلى آخرها، وصوته الوحيد الضاد. ينظر: في علم اللغة، الدكتور غازي مختار طليمات، ص134. وأبحاث في علم التجويد، ص153.

(2) ينظر: أبحاث في علم التجويد، ص154.

(3) الرعاية، ص158-159 والدراسات الصوتية، الحمد، ص267.

(4) التحديد، ص164، والدراسات الصوتية، الحمد، ص268.

(5) الموضح، ص114، والدراسات الصوتية عند علماء التجويد، الحمد، ص268.

(6) كتاب في تجويد القراءات، ص72و، نقلاً عن أبحاث في علم التجويد، ص156، والدراسات الصوتية، الحمد، ص268.

بالذال، ومنهم من يجعله لاماً مفخّمة، ومنهم من يُشِمُّهُ بالزاي وكل ذلك لا يجوز".[1]

وقال ابن الجزري في كتابه التمهيد في علم التجويد: "واعلم أن هذا الحرف ليس من الحروف حرفٌ يَعْسُرُ على اللسان غيره، والناس يتفاضلون في النطق به، فمنهم من يجعله ظاء مطلقة... وهم أكثر الشاميين وبعض أهل الشرق، ومنهم من لا يوصلها إلى مخرجها، بل يخرجها دونه ممزوجة بالطاء المهملة لا يقدرون على غير ذلك، وهم أكثر المصريين وبعض أهل المغرب، ومنهم من يخرجها لاماً مفخمة، وهم الزيالع[2] ومن ضاهاهم. واعلم أن هذا الحرف خاصة إذا لم يقدر الشخص على إخراجه من مخرجه بطبعه لا يقدر عليه بكلفة ولا بتعليم".[3]

وبعد ابن الجزري أصبح لنطق الضاد شكلان هما:

نُطقه شبيهاً بالظاء، أو نطقه شبيهاً بالطاء، وقد بالغ بعضهم في إنكار نطق الضاد شبيهة بالطاء، فهذا ابن غانم المقدسي، يقول في مقدمة رسالته (بغية المرتاد لتصحيح الضاد): "فليُعْلَمَ أن أصل هذه المسالة أنهم ينطقون بالضاد ممزوجة بالدال المفخمة والطاء المهملة، وينكرون على من ينطقون بها قريبة من الظاء المعجمة، بحيث يتوهم بعضهم أنها هي، وليس كما توهّمهُ".[4]

وكان الفصل الثاني من رسالته السابقة "فيما يدل بالتصريح على أن التلفظ بالضاد شبيهة بالظاء هو الصحيح، وهو المنقول من كلام العلماء الفحول المتلقى كلامُهم بالقبول".[5]

وجاء في ختام رسالته "إن مَن ينطق بالضاد مِن مخرجها الخالص، مع صفاتها المميّزة لها حتى عن الظاء، فهو في أعلى مراتب النطق بها ومن الفصاحة،

---

(1) النشر في القراءات العشر، 219/1.

(2) زيلع: جبل في السودان في أطراف بلاد الحبشة. ينظر: معجم البلدان 966/2.

(3) التمهيد في علم التجويد، ابن الجزري، ص42-43، نقلاً عن أبحاث في علم التجويد، الحمد، ص156-157 والدراسات الصوتية عند علماء التجويد، الحمد، ص269.

(4) بغية المرتاد، 2 ظ، نقلاً عن أبحاث في علم التجويد، ص157، والدراسات الصوتية عند علماء التجويد، الحمد، ص271.

(5) بغية المرتاد، 6 ظ، نقلاً عن أبحاث في علم التجويد، ص157، والدراسات الصوتية عند علماء التجويد، الحمد، ص274.

ودُونَهُ مَن ينطق بها من مخرجها مشوبةً بالظاء، لكن من مخرجها، وبينها نوع فرق، ودونه من ينطق بها ظاءً خالصة، ومن يشمُّها الذال، ومن يَشُمُّها الزاي، ومن يجعلها لاماً مفخمة، وكذا من ينطق بالضاد طائية، فهو في أسفل مراتب النطقية بالنسبة إلى من سبق ذكره".[1]

وحذر محمد المرعشي من الخطأ في نطق الضاد في رسالته (كيفية أداء الضاد)، فقال: "وأما المقصد فهو أن ما شاع في أكثر الأقطار من تلفظ الضاد المعجمة كالطاء المهملة في السمع بسبب إعطائها شدة وإطباقاً أقوى كإطباق الطاء، وتفخيماً بالغاً كتفخيمها خطأٌ بوجوده".[2]

وقال المرعشي في كتابه (جهد المقل): "ليس بين الضاد المعجمة، والطاء المهملة تشابه في السمع... فما اشتهر في زماننا هذا من قراءة الضاد المعجمة، مثل الطاء المهملة فهو عجب لا يُعرف له سبب".[3]

وذكر المرعشي المفاسد المترتبة عن تحويل قراءة الضاد إلى طاء فقال: "قراءة الضاد المعجمة مثل الطاء المهملة فيها مفاسد:

الأول: أنه يلزم إعطاء الشّدَّة للضاد مع أنه رخو.

الثاني: أن الاستطالة امتداد الصوت فتفوت حينئذ.

والثالث: أن في الضاد تفشّياً قليلاً فيفوت أيضاً حينئذ ولكونهما حرفاً رخواً".[4]

ومن خلال العرض السابق نتوصل إلى خلاصة لأقوال العلماء في كيفية نطق الضاد في القرون السابقة هي:

1- صعوبة نطق الضاد التي وصفها سيبويه وانحرافهم إلى نطق أصوات أخرى بدلاً عنها.[5]

2- انتقال نطق الضاد في العصور المتلاحقة إلى أصوات متعددة، منها:

---

(1) بغية المرتاد 9 ظ، نقلاً عن أبحاث في علم التجويد، ص158.

(2) كيفية أداء الضاد، 2 ظ، نقلاً عن أبحاث في علم التجويد، ص158.

(3) جهد المقل، 20 ظ، نقلاً عن أبحاث في علم التجويد، ص158.

(4) جهد المقل، 169-170، نقلاً من الأخطاء الواقعة في قراءة سورة الفاتحة من المصلين والأئمة والقارئين، ص66.

(5) ينظر: أبحاث في علم التجويد، ص159، والدراسات الصوتية، الحمد، ص270، والدراسات الصوتية عند علماء العربية، الأصبيعي، ص ص 114-116.

أ . الظاء.

ب . اللام المفخمة.

ج . مزجها بالذال، أو إشمامها بالزاي

د . مزجها بالدال والطاء (الضاد الطائية).[1]

3- شدة إنكار علماء التجويد لنطق (الضاد الطائية) مكان الضاد القديمة، وتساهُلُهم في نطق الأصوات الأخرى البديلة عن الضاد.[2]

العنصر الثاني – أحكام الضاد عند المحدثين:

أجمع علماء اللغة المهتمون بالنطق العربي في العصر الحديث على أن الضاد التي وصفها سيبويه بأنها صوت حافِيٌّ، رِخْوٌ، مجهور، مطبَق، مستعلٍ، مستطيل، لم تَعُدْ تجري على ألسنة من ينطق بالعربية، وبعضهم صار ينطقها ظاء خالصة،وهم أهل العراق وبلدان الجزيرة العربية وبعضهم ينطقها دالاً مطبقة أو طاءٍ مجهورةً، وهم أهل مصر وبلاد الشام.[3]

وقرّاء القرآن الكريم اليوم في مصر والحرم المكي والمدني والعراق ينطقون الضادَ طاءً مجهورة أو دالاً مطبقة، فتكون بهذا صوتاً أسنانياً لثوياً شديداً مجهوراً مفخماً،[4] ويمكن تسمية هذه الدال المطبقة بما سماها به ابن غانم المقدسي، حيث سمّاها بـ (الضاد الطائية) وهي صوت يشارك التاء والدال والطاء في المخرج، فهي تخرج من طرف اللسان وأصول الثنايا أو اللثة، وصفتها أنها صوت لثوي، أسناني، شديد، مجهور، مطبق.[5]

ويحاول هؤلاءِ القراءُ تقليدَ سيبويه في كلامه فيضع أحدُهم طرَف لسانه ذات

---

(1) ينظر: أبحاث في علم التجويد، ص159، والدراسات الصوتية، الحمد، ص270، والدراسات الصوتية عند علماء العربية، الأصبيعي، ص ص 114-116.

(2) ينظر: أبحاث في علم التجويد، ص159، والدراسات الصوتية، الحمد، ص270، والدراسات الصوتية عند علماء العربية، الأصبيعي، ص ص 114-116

(3) ينظر: المدخل إلى علم اللغة، الدكتور رمضان عبد التواب، ص64، وأبحاث في علم التجويد، ص159.

(4) ينظر: مناهج البحث في اللغة، الدكتور تمّام حسّان، ص120.

(5) ينظر: أبحاث في علم التجويد، ص150، والدلالة الصوتية في اللغة العربية، ص109، وأحكام تجويد القرآن الكريم في ضوء علم الأصوات الحديث، ص42، ومدخل إلى علم اللغة، ص29.

اليمين أو ذات الشمال من الفم، ظانّين أن ذلك هو ما عناه سيبويه بقوله (من الجانب الأيسر، أو من الجانب الأيمن) وهذا وهم ليس له دليل؛ لأن سيبويه كان يريد بالجانب حافة اللسان لا طرَفهُ.[1]

وأما كيفية نطق صوت الضاد فيتم بالتصاق مقدمة اللسان باللثة والأسنان العليا التصاقاً يمنع مرور الهواء مع رفع الطبق لِيَسُدَّ التجويف الأنفي فيقعَ اهتزاز الأوتار الصوتية، وترتفعَ مؤخرة اللسان في اتجاه الطبق.[2]

ويمكن وضع جدول لصوت الضاد القديمة والضاد الحديثة والظاء والدال[3]

الضاد القديمة	الضاد الحديثة	الظاء	الدال
حافِيٌّ	لثوي	أسناني	لثوي
رخو	شديد	رخو	شديد
مجهور	مجهور	مجهور	مجهور
مطبَق	مطبق	مطبق	منفتح
مستطيل	مستطيل	مستطيل	مستطيل

تبين من خلال الجدول السابق أن الظاء تشارك الضاد القديمة في أكثر صفاتها، ولعل هذا ما يفسّر تحوُّلَها إلى ظاء على ألسنة كثير من الناطقين قديماً وحديثاً، وأما الضاد الحديثة فهي نظير صوت الدال، وتشاركه في المخرج والصفات ماعدا صفة الإطباق.[4]

فالضاد الحديثة صوت مطبق، والدال صوت منفتح "وصوت الضاد يشبه صوت الطاء في حركة أعضاء النطق عند المخرج وعند الطبق والحلق، ويخالفه في حركة الأعضاء عند الحنجرة، حيث يحدث معه ما يحدث مع صوت الدال، الذي

(1) ينظر: أبحاث في علم التجويد، ص160.

(2) ينظر: المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، ص104، والأصوات ووظائفها، ص59، وعلم الأصوات بين القدماء والمحدثين، ص69.

(3) ينظر: أبحاث في علم التجويد، ص161.

(4) ينظر: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، ص155.

يشبه صوت الضاد في حركة الأعضاء عند المخرج كذلك".[1]

والضاد الحديثة بهذا الشكل تشارك وتوافق كلاً من التاء والطاء والدال في المخرج، كما تشاركهما في عدد من الصفات ولم تَعُدْ ذلك الصوت الذي تحدّث عنه سيبويه في كتابه.[2]

واليوم لولا الإطباق لصارت الضاد دالاً، ولولا الجهر لصارت الضادُ طاءً، أي طاءً حديثة مهموسة؛ لأن القدماء من علماء العربية والتجويد وصفوا صوت الطاء بأنه صوت مجهور، فيكون بذلك موافقاً للضاد الحديثة.[3]

ويقول المستشرق (هنري فليش): "ولقد كان العرب يتباهَوْنَ بنطقهم الخاص لصوت الضاد، وهو عبارة عن صوت مفخّم، يُحتمل أنه كان ظاء جانبية أي أنه كان يجمع الظاء واللام في ظاهرة واحدة، وقد اختفى هذا الصوت، فلم يَعُدْ يُسْمَعْ في العالم العربي، وأصبح بصفة عامة إما صوتاً انفجارياً، هو مطبق الدال، وإما صوتاً أسنانياً هو الظاء".[4]

العنصر الثالث – الضاد الضعيفة

وهي أحد الحروف الفرعية غير المستحسنة في قراءة القرآن، ولا في الشعر، يقول سيبويه: "إلا أن الضاد الضعيفة تُتكلف من الجانب الأيمن، وإن شئت تكلّفتَها من الجانب الأيسر وهو أخف؛ لأنها من حافة اللسان مُطبقة، لأنك جمعتَ في ا لضاد تكلُّفَ الإطباق مع إزالته عن موضعه، وإنما جاز هذا فيها لأنك تحوّلها من اليسار إلى الموضع الذي في اليمين وهي أخف، لأنها من حافة اللسان وأنها تخالط مخرج غيرها بعد خروجها، فتستطيل حين تخالط حروف اللسان، فسهُل تحويلُها إلى الأيسر، لأنها تصير في حافة اللسان في الأيسر إلى مثل ما كانت في الأيمن، ثم تَنْسُلُّ من الأيسر حتى تتصل بحروف اللسان، كما كانت كذلك في الأيمن".[5]

وخصّ السيرافي (ت368هـ) الصعوبات في نطق الضاد بأقوام ليس في لغتهم

---

(1) الدراسات الصوتية عند علماء العربية، عبد الحميد الأصبيعي، ص41.

(2) ينظر: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، ص155.

(3) ينظر: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، ص155.

(4) العربية الفصحى، لهنري فليش اليسوعي، ترجمة الدكتور عبد الصبور شاهين، بيروت، 1966، ص37.

(5) الكتاب، 432/4.

نطقٌ للضاد، وإذا أرادوا أن يتكلموا بالضاد اعتاصت عليهم وصَعُبتْ، فربما أخرجوها ظاء والسبب لأنهم يخرجونها من طرف اللسان وأطراف الثنايا وربما تكلّفوا إخراجها من مخرج الضاد، فلم تتأت لهم فتخرج وسطية بين الضاد والظاء[1]، ومثّلوا له بـ (اثرِدْ له): (اضْرِود له) يقرّبون الثاء من الضاد.[2]

وفي هذا المعنى قول ابن يعيش: "والضاد الضعيفة من لغة قوم اعتاصت عليهم، فربما أخرجوها ظاء، وذلك أنهم يخرجونها من طرف اللسان وأطراف الثنايا، وربما راموا إخراجها من مخرجها فلم يتأتّ لهم فخرجت بين الضاد والظاء".[3]

العنصر الرابع – الفرق بين الضاد والظاء

تفاقمت مشكلة النطق بالضاد في القرن الرابع الهجري، فكان ذلك سبباً في عناية علماء العربية وعلماء قراءة القرآن والتجويد بالموضوع، فجمعوا الألفاظ التي تُنطق بالضاد وبالظاء في رسائل تُشبه المعجمات الصغيرة، يَسْهُل الرجوع إليها ومعرفة ما يُكتب من تلك الألفاظ بالضاد أو بالظاء ولم يتعرضوا للجانب الصوتي، ومن تلك رسالة الصاحب ابن عباد (ت385هـ) في الضاد والظاء، ورسالة محمد بن نشوان الحميري (ت610هـ) وغيرها، وقد أحصى الدكتور حاتم صالح الضامن في مقدمة تحقيقه لكتاب (الاعتماد في نظائر الظاء والضاد) لابن مالك، أكثر من أربعين كتاباً في هذا الموضوع.[4]

وقد نبه علماء التجويد إلى خصائص نطق صوت الضاد والانحرافات التي تلحقه على ألسنة الناطقين، والأصوات التي يختلط بها أو يقترب منها، وألّفوا في ذلك عدة رسائل وكتيّبات،[5] ومن أشهرها.[6]

1- غاية المراد في إخراج الضاد، لابن النجار (محمد بن أحمد ت870هـ).[7]

---

(1) ينظر: شرح الكتاب للسيرافي، 449/6.

(2) ينظر: شرح الشافية للاستراباذي، 256/3، والدراسات الصوتية عند علماء التجويد، الحمد، ص279.

(3) شرح المفصل، 127/10-128.

(4) ينظر: مجلة المجمع العلمي العراقي، ج3، مج2،، ص2-8، وأبحاث في علم التجويد، ص154.

(5) ينظر: أبحاث في علم التجويد، ص154.

(6) ينظر: الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، الحمد، ص38-39.

(7) قام بتحقيقه الدكتور طه محسن، ونشره في مجلة المجمع العلمي العراقي.

2- بغيــة المرتــاد لتصــحيح الضــاد، لابــن غــانم المقدســي علــي بــن محمــد (ت1004هـ).[1]

3- رســالة فــي كيفيــة أداء الضــاد، لمحمــد المرعشــي (الملقــب ســاجقلي زاده، ت1150هـ).[2]

ومما يشهد على وجود التداخل بين الضاد والظاء في اللهجات العربية ما جاء في قراءتين مختلفتين لكلمة واحدة، وذلك في قوله تعالى: (وَمَا هُوَ عَلَى الغَيْبِ بِضَنِينٍ) سورة التكوير، الآية 24، حيث قرئت أيضاً بظنين.

ويذكر الزمخشري أنها رُسمت في مصحف عبد الله بالظاء، وفي مصحف أبيّ بالضاد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بهما.[3]

ونجد مكي بن أبي طالب (ت437هـ) يؤكد في كتابه الرعاية على قضيتين الأولى: صعوبة نطق الضاد، والثانية اختلاطها بالظاء، فيقول: "والضاد يشبه لفظها لفظ الظاء؛ لأنها من حروف الإطباق ومن الحروف المستعلية ومن الحروف المجهورة، ولولا اختلاف المخرجين وما في الضاد من الاستطالة لكان لفظهم واحداً، ولم يختلفا في السمع... ولابد له (أي القارئ) من التحفظ بلفظ الضاد حيث وقعت فهو أمر يقصر فيه أكثر من رأيت من القراء والأئمة لصعوبة من لم يدرب فيه، فلابد للقارئ المجوّد أن يلفظ بالضاد مفخمة مستعلية منطبقة مستطيلة، فيظهر صوت خروج الريح عند ضغط حافة اللسان بما يليه من الأضراس عند اللفظ بها، ومتى فرّط في ذلك أتى بلفظ الظاء أو بلفظ الذال فيكون مبدّلاً ومغيرًّا والضاد أصعب الحروف تكلفاً في المخرج وأشدها صعوبة على اللافظ، فمتى لم يتكلف القارئ إخراجها على حقها أتى بغير لفظها، وأخلّ بقراءته ومن تكلف ذلك وتمادى عليه صار له التجويد بلفظها عادة وطبعاً وسجية".[4]

وصوت الضاد والظاء بينهما صفات كثيرة مشتركة في كثير من النواحي

---

(1) قام بتحقيقه الدكتور محمد عبد الجبار المعيبد، ونشره في مجلة المورد، ببغداد.

(2) قام بتحقيقه الدكتور حاتم صالح الضامن.

(3) ينظر: الكشاف، 225/4.

(4) الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، ص158-159.

الصوتية وهي (الرخاوة، والجهر، والإطباق) ولا يُفرَّقَ بينهما إلا بالمخرج والاستطالة، ولهذه الصفات المشتركة أثر عظيم في جَعْل وقعهما في السمع متشابهاً، فصعب التمييز بينهما خاصة عند العجم.[1]

ولذا قال ابن الجزري:[2]

الضاد باستطالة ومخرجِ مَيّزْعن الظاء وكلها تجئ

العنصر الخامس – سبب تسميتها بلغة الضاد

السبب في ذلك أن تعلُّمَ نطق الضاد مشكلة عويصة لمن يريد تعلُّمَ العربية من الأعاجم، يقول الدكتور إبراهيم أنيس عن ذلك "يظهر أن الضاد القديمة كانت عصية النطق على أهالي الأقطار التي فتحها العرب، أو حتى على بعض القبائل العربية في شبه الجزيرة، مما يفسّر تلك التسمية القديمة (لغة الضاد)، كما يظهر أن النطق القديم بالضاد، كان إحدى خصائص لهجة قريش".[3]

ويؤكد هذا ما قاله ابن جني (أبو الفتح عثمان ت392هـ): "واعلم أن الضاد للعرب خاصة، ولا يوجد في كلام العجم إلا في القليل".[4]

وهذا يبيَّن أهمية صوت الضاد في لغتنا الحبيبة.

وأما حديث "أنا أفصح من نطق بالضاد" فيقرّر معظم الثقات من القدماء أنه لم يثبت ولم يصح وليس له سند، بل لا أصل له كما صرّح بذلك جماعة من الحفاظ[5]، والذي ورد هو "أنا أفصح العرب بيد أني من قريش".

ويبقى الدكتور إبراهيم أنيس متحيراًَ من أمر تطبيق صوت الضاد الذي حدّده

---

(1) ينظر: الدراسات الصوتية عند علماء العربية، الأصبيعي، ص117.

(2) ينظر: الحواشي المفهمة في شرح المقدمة، بتحقيقي، ص172.

(3) الأصوات اللغوية، الدكتور إبراهيم أنيس، ص50، نقلاً عن المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، الدكتور رمضان عبد التواب، ص69–70. وينظر: قطوف لغوية، ص199، ودراسة الصوت اللغوي، ص349، والدراسات الصوتية عند علماء التجويد، الحمد، ص275.

(4) سر صناعة الإعراب، 222/1.

(5) ينظر: الأصوات اللغوية، ص50، ويقول ابن الجزري عن هذا الحديث "والحديث المشهور على الألسنة (أنا أفصح من نطق بالضاد) لا أصل ولا يصح). النشر في القراءات العشر 219/1–220، وإن كان الحديث لا أصل له، إلا أنّ رسول الله هو أفصح من نطق بالضاد تطبيقاً بين أصحابه –رضوان الله عليهم–.

سيبويه ومن بعده، فتركنا سيبويه في حَيرة من أمر هذا الصوت، ولم يذكر أن اللغة العربية تميزت وحدها بالضاد، أو أنها تُسمَّى لغة الضاد.[1]

وتسميتها بلغة الضاد ترجع إلى القرن الرابع الهجري إذ شاعت وذاعت حينئذ في بغداد للتمييز بين لغة العرب ولغة غيرهم من الفرس والأتراك، ومن ثم انتقلت إلى باقي البلدان العربية، وبذلك ساد وصف العربية بأنها لغة الضاد، كما جاء في شعر المتنبي يفخر بقومه:

وبهم فَخَرَ كلُّ مَن نطق الضا
د وعَوْذُ الجاني، وغَوْثُ الطريد[2]

وخلاصة القول أنه ينبغي تحري النطق الصحيح لمن استطاع ذلك وقدر عليه، ولا يضر الإخلال به مع الجهل، ولا يقدح في القراءة، يقول ابن كثير: "مسالة: والصحيح من مذاهب العلماء أنه يُغْتَفَرُ الإخلال بتحرير ما بين الضاد والظاء لقرب مخرجيهما؛ وذلك أن الضاد مخرجها من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس، ومخرج الظاء من طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا، ولأن كلاً من الحرفين من الحروف المجهورة ومن الحروف الرخوة ومن الحروف المطبقة، فلهذا كله اغتفر استعمال احدهما مكان الآخر لمن لا يميز ذلك، والله أعلم".[3]

قائمـة المصـادر والمراجـع

[1] أبحاث في علم التجويد، الدكتور غانم قدُّوري الحَمَد، دار عمار، الطبعة الأولى، 1422هـ-2002م.

[2] أحكام تجويد القرآن الكريم في ضوء علم الأصوات الحديث، دراسة مقارنة، الدكتور عبد الله عبد الحميد سويد، د ط، د ت.

[3] الأخطاء الواقعة في قراءة سورة الفاتحة من المصلين والأئمة والقارئين، محمد بن موسى آل نصر، الطبعة الأولى، 2005م.

[4] الأصوات اللغوية، الدكتور إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، د

(1) ينظر: الأصوات اللغوية، ص49.

(2) ينظر: قطوف لغوية، عبد الفتاح المصري، ص191-200، ودراسة الصوت اللغوي، الدكتور أحمد مختار عمر، ص349.

(3) تفسير القرآن العظيم، للحافظ إسماعيل ابن كثير، ص54-55.

ط، سنة 1999م.

[5] الأصوات ووظائفها، الدكتور محمد منصف القماطي، منشورات جامعة الفاتح، 1986، د ط.

[6] تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، دار الأندلس، الطبعة الخامسة، 1404هـ، 1984م.

[7] جهد المقل، للمرعشي، دار عمار.

[8] الحواشي المفهمة في شرح المقدمة فيما يجب على القارئ أن يعلمه لأبي بكر أحمد بن محمد بن محمد بن محمد الجزري كان حياً سنة 829هـ، رسالة ماجستير إعداد الأستاذ: ناصر مولود الأمين الجبو، د ط (مازلت مركونة) نوقشت بجامعة السابع من إبريل، سنة 1371 من وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، 2003ف.

[9] الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، الدكتور غانم قدُّوري الحمد، مطبعة الخلود، بغداد، الطبعة الأولى، 1406هـ، 1986م.

[10] الدراسات الصوتية عند علماء العربية، عبد الحميد الهادي إبراهيم الأصيبعي، الطبعة الأولى، 1401 من وفاة الرسول –صلى الله عليه وسلم– 1992م.

[11] دراسة الصوت اللغوي، الدكتور أحمد مختار عمر، عالم الكتب، 1411هـ، 1991م.

[12] الدلالة الصوتية في اللغة العربية، الدكتور صالح سليم عبد القادر، منشورات جامعة سبها، د ط، 1988م.

[13] سر صناعة الإعراب، تحقيق مصطفى السقا، وآخرين، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، بمصر، سنة 1954م.

[14] شرح المفصل لابن يعيش، الطباعة المنيرية بمصر.

[15] شرح شافية ابن الحاجب، لمحمد بن الحسن الاستراباذي، تحقيق محمد الزفزاف وآخرين، مطبعة حجازي، القاهرة، د ت.

[16] العربية الفصحى، لهنري فليش اليسوعي، ترجمة الدكتور عبد الصبور

شاهين، بيروت، 1966م.

[17] علم الأصوات بين القدماء والمحدثين، الدكتور علي حسن مزبان، دار شموع القلم، الطبعة الأولى، 2003م.

[18] علم اللغة العربية، مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية، دار نهضة الشرق، د ط، 1997م.

[19] علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، الدكتور محمود السعران، دار النهضة العربية للنشر والتوزيع، بيروت، د ط، د ت.

[20] في علم اللغة، الدكتور غازي مختار طليمات، الطبعة الثالثة، 2007ف.

[21] قطوف لغوية، عبد الفتاح المصري، مؤسسة علوم القرآن، الطبعة الأولى، 1404هـ، 1984م.

[22] كتاب العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175هـ) تحقيق الدكتور المهدي المخزومي، والدكتور إبراهيم السامرائي، دار الرشيد، سنة 1980م.

[23] كتاب في تجويد القراءة، لابن وثيق (إبراهيم بن محمد الإشبيلي)، مخطوط في مكتبة أبا صوفيا باستانبول (الرقم 7/39)، ومنه نسخة مصورة في معهد المخطوطات العربية في القاهرة، (رقم 72 قراءات وتجويد).

[24] الكتاب، سيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975م.

[25] لرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، تحقيق الدكتور أحمد حسن فرحات، دمشق 1393هـ، 1973م.

[26] مجلة المجمع العلمي العراقي، ج3، مج31، ص2-8.

[27] المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، الدكتور رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الثالثة، 1417هـ، 1997م.

[28] مدخل إلى علم اللغة، محمد سعيد احديد، الطبعة الأولى، د ت.

[29] معجم البلدان، لياقوت الحموي، الطبعة الأوروبية، ليبزج، 1867م.

[30] المقتضب، المبرد، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، القاهرة.

[31] مناهج البحث في اللغة، الدكتور تمّام حسان، دار الثقافة، د ط، 1406هـ، 1985م.

[32] المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، الدكتور نوزاد حسن أحمد، منشورات جامعة قاريونس، الطبعة الأولى، 1996م.

[33] النشر في القراءات العشر، لابن الجزري، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، د ت.

[34] نظرات في اللغة، الدكتور محمد مصطفى رضوان، منشورات جامعة قاريونس، الطبعة الأولى، 1976م.